الفصل الثامن والثلاثون

في الرحلة العلمية من الأقصر إلى جبل السلسلة

كيلومتر
١٤ من الأقصر إلى أرمنت
٤٢ من أرمنت إلى إسنا
٧٥٦ من بولاق إلى إسنا

ثم نغادر الأقصر ونتجه إلى الجنوب وبعد ما نقطع ستة وخمسين كيلومترًا نصل إلى بندراسنا وبها من الآثار القديمة معبد مطمور بالأتربة واقع في أصقع جهاتها عليه جملة دور ومنازل للأهالي لم ير منه غير إيوان الأعمدة المقابل للباب العام فينزل له الإنسان بجملة درجات ووجهته وأساطينه من بناء الرومان حيث يرى عليها إسم كل من الإمبراطور (قلوديوس) و(دومسيانوس) و(قومودوس) و(سبتيم سواريوس) و(كراكلا) و(جاتا) أما داخل الإيوان فجني من زمن اليونان أي أيام دولة البطالسة وقد حقق بعضهم أن بطليموس (فيلوماطور) أي محب أمه (سمي بهذا الإسم لتهكم والسخرية لبغضه إياها) بني جانبًا منه وجميع كتابة هذا الإيوان قبيحة وإنشاؤها رديء يتخللها ألفاظ قد تلاعب الكاتب بمعانيها وإستعملها في غير ما وضعت له ثم جناسات دخلها لغرابة والتعقيد ثم أحرف مقطعية قد زاغت معانيها عن الحقيقة وكل ذلك يوجب حيرة القارئ ولا يقوى على حل معانيها إلا فحول العلماء ومن له قدم راسخ في علم الآثار لأن المعاني مختفية تحت هذا التنافر وركاكة الإختراع وعلى الحيطان والعمد صورة بعض المعبودات ونوع السمك المعروف الآن بإسم لاطس اللذيذ اللحم ولعله كان مقدسًا في ذلك الإقليم بدليل أنه وجد في هذه السنين الأخيرة على نحو الساعتين من بلدة إسنا فساقي مملوءة برمم السمك المحنط وإذا تأملنا إلى السقف رأيناه وتيجان الأساطين الحاملة له محجوبًا بالعثان (الهباب الأسود) لكن نلمح من خلال ذلك السواد صنعة دقيقة متقنة النقش وسخاوة ظاهرة في الرسم تكاد أن تكون معدومة في مباني ذلك العصر وذلك أن النقش والحفر لم يكونا فنًا كالعمارة المصرية التي إضمحلت بمصر مدة اليونان والرومان وللأساطين المذكورة منظر بديع لأنها قائمة بالهندام فوقها تيجان تجمل ذلك السقف وكلها من الحجر الجافي والمسافة التي بين العمد ضيقة وتيجانها في

غاية البهجة مصنوعة على هيئة باقة من البشنين (الإقحوان الذابل) ولعل الرومان إتخذت هذه الهيئة من معبد جزيرة فليا الذي صنع اليونان أساطينه على شاكلة أساطين معبد مدينة أبو ومعبد الكرنك ويظهر أن هذا إلا نموذج القديم أحيته اليونان بعد مواته وإندراس إستعماله وذكر بعض علماء الآثار أن شمبليون الشاب نظر إلى داخل المعبد المردوم فرأى محله الأقدس وقرأ عليه إسم الملك طوطوميس الثالث وقال مارييت باشا أن هذه الرواية تحتاج إلى الإثبات والتحقيق إذ لا يمكننا الآن أن ندخلها في دائرة العلم بأن نعزي بناء المردوم منه إلى الملك المذكور لأنه من المستحيل الآن أن يرى الإنسان شيأ منه غير الرحبة العظيمة الداخلة وكلها مطمورة بالأتربة اهـ.

وفي سنة ١٨٩٢ أخبرني بعض الأهالي أن كثيرًا من المنازل والدور مبني فوق المعبد المردوم ثم أشار إلى منزل منها وقال لي كان لصاحبه جاموسة فدخلت في بعض الأيام مساء إلى مكانها حسب عادتها فإنشقت الأرض وغارت فيها إلى أسفل المعبد وما قدر أحد على إخراجها فماتت تحت الأرض وهي باقية إلى الآن وكان ذلك من نحو أربع سنين ثم أن الرجل أخذني إلى حارة ضيقة فوجدت بعض جدرها مبنيًا بالحجر النحت المكتوب بالقلم القديم وفتح لي بعض الحوانيت وأطلعني على بعض الجدر المكتوبة ورأيت بالمنازل مباني قديمة تشهد أنها من المعبد فعلمت صحة قوله وأن المعبد كان كبيرًا ثم خابرت مصلحة الآثار أن تشتري جميع المنازل التي فوقه وتزيلها لتظهره لكنها لم تفعل بعد.

كيلومتر
٢٨ من إسنا إلى الكاب
٢٢ من الكاب إلى إدفو
٨٠٦ من بولاق إلى إدفو

ثم نسير إلى الجنوب فإذا قطعنا ثمانية وعشرين كيلومترًا بلغنا قرية الكتاب الواقعة على الضفة الشرقية للنيل وهي مشهورة بمغاراتها وهيكلها الصغير المبني في زمن العائلة الثامنة عشرة الواقع على نحو أربع كيلومترات من النيل وكانت هذه القرية من قديم الزمان معسكرًا حربيًا لمنع إغارة أمة الهيروشا المعروفة الآن بإسم أمة البشارية وقد دلت الكتابة المنقوشة هناك على أن هذه الأمة كانت تهدد مصر في كل حين بالإغارة وتتوعدها بالقدوم ويرى بهذا المكان الآن أثر قلعة حربية قديمة وسورها مبني باللبن (الطوب الني) وربما كان بناؤها مدة الطبقة الأولى المصرية وقد

رأيت عرضه يزيد عن ثلاثة أمتار ورأيت بالقرب من جبلها معبدًا صغيرًا مهدومًا لأحد البطالسة وفي هذه السنين الأخيرة أجرت مصلحة الآثار الحفر بالقرب من هذه القلعة فوجدت صنمًا هائلًا مكسورًا مصنوعًا من الحجر الجيري يظهر من حالته أنه من عمل دولة العمالقة فإذا تحقق ذلك كانت فائدة تاريخية مهمة وهي إمتداد حكم العمالقة إلى الصعيد الأقصى لكن ذلك لم يتحقق بعد.

ورأيت في الجبل الغربي أمام قرية البصيلية مغارات وكهوفًا بعضها مكتوب وبعضها غفل وبلغني أنه يوجد في الجبل على بعد ساعة جهة الشمال الغربي من هذه المغارات عين ماء يقصدها المرضى ليغتسلوا ويشربوا منها فقصدتها وقت الظهر وكان الحر يشوي الوجوه فإذا هي حفرة صغيرة طبيعية بوسط الجبل وحولها أواني من الفخار لأخذ الماء بها وهو لا يكاد يبلغ الثلاث قرب يمكن الإنسان أن يشرب منه بيديه لقربه فأمرت من كان معي من الخفراء بنزحها ففعلوا ونظرت إلى قاعها فرأيت سلسالًا من الماء الصافي الضعيف ينجبس من الصخر فإنتظرته ريثما جم وإجتمع فشربت منه فإذا هو معدني بارد له طعم الماء المعروف بماء فيشي المستعمل في الطب فأكثرت من شربه لأقف على مفعوله وغسلت وجهي منه فإستشعرت بألم في عيني و إسهال خفيف وإدرار البول ولما عدت إلى السفينة أمرت أحد الناس فملأ لي منها قدرًا كبيرًا وجعلته في زجاجات وكنت آخذ منه كل يوم مع الأكل فكان يحدث معي ما ذكر ويساعد على الهضم غير أنه بعد ثلاثة أيام تغير طعمه وصار آسنًا فأهملته ولا أدري إن كان له فائدة طبية غير ما ذكر ولعل حكومتنا السنية وأطباءنا يكشفون لنا عن فائدة هذا الماء وقال لي بعض الأهالي أنه يوجد بقرية الكاب أي في الجانب الشرقي للنيل عين أخرى على سمت هذه يأخذ منها الأهالي للطبخ والعجن.

فإذا يمنا الجنوب وصلنا بعد ساعتين تقريبًا إلى معبد إدفو ذي الأبراج الشاهقة التي يراها السائح من بعد كالقلاع أو الجبال الشاهقة إذ ليس لعلوها مثيل في جميع أبراج المعابد المصرية لأنها تبلغ ٣٥.١٠ مترًا وبها مائتان وستة وأربعون درجة ولوضع المعبد مشابهة معبد دندره الذي سبق ذكره ورسمه في هذا الكتاب وهو محاط من جهته الغربية والجنوبية بتلال من الأتربة تحاكي آكام الجبال وقال ماربيت باشا أن معبد إدفو كان مطمورًا بالأتربة وما فيها حتى تساوى بما حوله من الآكام فتطرقت الناس إليه بالبناء وجعلوا فوق صحنه المردوم بالتراب وعلى سطحه منازل وغرفًا ودورًا وإسطبلات للماشية ومخازن (يعني كمعبد إسنا الآن) فإهتمت الحكومة بشأنه وأزالت

جميع ما عليه وما به والفضل في ذلك لوالي مصر أعني (حضرة إسماعيل باشا) ومن دخل فيه الآن وعلى أنه كان مدفونًا تحت التراب علم مقدار ما قاسته الناس في كشفه وتالله إنها لخدمة جليلة للعلم وذويه اهـ. وفي سنة ٩٢ رأيت حوله الأتربة التي كانت به مكومة كالجبال ورأيت الجدار الغربي من حوش البواكي قد مال إلى الشرق قليلًا وأمال معه العمد وباكيتها فتشوه منظر الحوش وأخبرني مفتش المعبد أنهم لما أجروا تنظيفه لم يفتكروا أن يرفعوا الأتربة التي حوله من الخارج حتى كانت تحصل الموازنة فتدافعت الأتربة من الجهة الغربية فإختل مركز ثقل الجدار فمال وأمال معه الباكية والعمد إلى الجهة الشرقية كما ذكر.

أما بناء المعبد فمن زمن بطليموس الرابع المسمى فيلوباطور (أي محب أبيه) (تسمى بذلك تهكمًا وسخرية لأنه كان يبغضه) وهو الذي بنى محله الأقدس وجميع الأروقة التي حوله كما بنى جميع أماكنه المهمة ولبطليموس السادس المدعو فيلوماطور (أي محب أمه) زينة ونقوش في بعض فسحاته أما الحوش أو رحبة البواكي التي خلف الأبراج فمن بناء بطليموس التاسع المدعو أو يرجيطه الثاني أي الرحيم (تسمي بذلك تهكمًا أيضًا لقساوته) ويرى على أحد جانبي الدهليز الخارج إسم بطليموس أو يرجيطه المذكور وعلى الجانب الآخر إسم بطليموس الحادي عشر المدعو إسكندر أما الأبراج فقد زينها بطليموس الثالث عشر المدعو ديونيزوس أي النباذ أو الخمار (سمي بهذا الإسم لتولعه بشرب الخمر) وكتابة النقوش العجيبة الموجودة على جلسة جدر المعبد من الخارج تستحق التأمل وعلى كل رواق إسمه (أي إسم الرواق) بحيث إنه يمكن الآن بكل سهولة رسم هذا المعبد وبيان جميع أماكنه باللغة البربائية حسب ما هو مبين به ومن العجب أنه مبين بكل رواق مقدار طوله وعرضه بالأذرع المعمارية القديمة مع كسورها فإذا مسحنا أحد هذه الأروقة وعرفنا مقدار ذرعه أمكننا إستخراج مقدار الذراع المعماري الذي كان مستعملًا بمصر في زمن دولة البطالسة وقد علمنا من النصوص التي عليه أن بناءه ابتدئ في زمن بطليموس فيلوباطور (محب أبيه) وإنتهى في زمن بطليموس أو يرجيطه الثاني (الرحيم) وهذه المدة عبارة عن نحو خمس وتسعين سنة والسبب في عدم نجاز بنائه في زمن قريب هو كثرة الحروب والفتن الداخلية والخارجية التي كانت تقع بين ملوك البطالسة وبعضها أو بينها وبين ملوك الشام فإذا أضفنا إلى ذلك مدة زينته التي إنتهت في زمن بطليموس الخمار آخر ملوك البطالسة لكان جميع مدة عمارته وزينته مائة وسبعين سنة تقريبًا ويرى في أحد أركان فسحاته ناووس أو محراب قطعة واحدة من حجر الجرانيت الرمادي الأرقط (المنقط) يجذب النظر إليه لدقة صنعته عليه كتابة تخبر

عن أصله وتاريخه يعلم منها أنه من عمل نقطنبو الأول (من العائلة الثلاثين) جعله ناووسًا لمعبد آخر كان محل هذا المعبد قبل بنائه وكان معدًا لحفظ الرمز السري الذي هو تمثال المعبد.

وعرض جميع هذا المعبد بعد طرح سمك سوره وأبراجه ٤٠. مترًا وطوله ٧١.٨٥ مترًا فإذا أضفنا إليه الأبراج بلغ عرض الوجهة ٧٥ مترًا وطوله ١٣٧.٦٠ متر.

ومن زار معبدي إدفو ودندره علم أنهما أخوان توأمان لأن أصل تصميمهما والغرض منهما واحد بدليل الكتابة المنقوشة على معبد إدفو وأن القسس كانت تجتمع في كلا المعبدين بالرحبة الثانية أو الحوش الثاني وتجهز الزفاف السنوي في المقصورة المعدة لذلك وتجعل القرابين في أروقتها الخاصة لها أما الأبراج فلم يعلم أنها كانت مختصة بشيء ديني وقد سبق القول عند ذكر معبد الأقصر أن فائدتها إشهار المعبد كالمئذنة وأبراج الكنيسة إذ لا دخل لها في الديانة.

وعلى ظاهر أبراج هذا المعبد أخاديد رأسية داخلة في الحائط منشورية الشكل كانت القسس تثبت فيها يوم أعيادهم صواري من الخشب الطويل جدًا يعلوها بيارق وأعلام تخفق فوق الأبراج وقد علم أن طول هؤلاء الصواري ما كان ينقص عن خمسة وأربعين مترًا فكانت تثبت في الأبراج بواسطة كلاليب تنفذ من الشباك المربعة التي ترى من الخارج مصنوعة في طول تلك الأخاديد ثم تتصل تلك الكلاليب بجهاز مثبت في الأروقة التي بها تلك الشبابيك.

كيلومتر

٤٢ من إدفو إلى جبل السلسلة

٨٤٨ من بولاق إلى جبل السلسلة

ثم تتحول من بندر إدفو إلى الجنوب وبعد أن نقطع إثنين وأربعين كيلومترًا نصل إلى جبل السلسلة الشهير بحجره الرملي العجيب الذي بنيت منه أغلب المعابد وكانت مقاطعه أهم جميع المقاطع المصرية لأسباب منها صلابة معدن حجره وقربه من النيل وسهولة المرسى بالسفن وحجر الجبل الشرقي أهم وأعظم من حجر الجبل الغربي وكان أغلب مقاطعهما مكشوفة بعضها في شاهق منه على حافة النيل يبلغ إرتفاعه من خمسة عشر مترًا إلى عشرين مترًا وبعضها على هيئة مدرج عظيم فيرى الزائر هناك الطريقة التي كان يستعملها القوم في قطع تلك الأحجار من مقالعها والإعتناء الذي كانوا يحرصون عليه في العمل حيث كانوا يجعلونها أقسامًا كبيرة منتظمة كنجار ماهر نشر كتلة من خشب ذي قيمة جعلها ألواحًا متساوية الأطراف منتظمة الطول

والعرض ولا ندري بأي آلة كانوا يباشرون هذا العمل ويتحصلون على ذلك الغرض سيما وأن هذا الحجر يبري الحديد ويأكله لحراشة ملمسه ومشابهته لحجر المسن وقد دققت البحث في تلك المقالع وغيرها فلم أر أدنى أثر للبارود واللغم المستعمل الآن في هذا العصر عند جميع الأمم ومقاطع الجبل الغربي صعبة الإرتقاء وليست ممتدة كمقاطع الجبل الشرقي غير أن به كثيرًا من المغارات والكهوف الصناعية مكتوبة وخالية بعضها مقابر للأموات وسبب إتخاذ هذه المغارات في تلك الجهة هو أنهم كانوا يعتقدون قداسة النيل وألوهيته ولما كان هذان الجبلان مطلين عليه وحاصرانه بينهما إعتقدوا طهارتهما للمجاورة فصنع بعض الملوك وغيرهم في الجبل الغربي تلك المغارات ونقشوا إسمهم فيها تبركًا أو تذكارًا على أنهم مروا به أو قطعوا منه أحجارًا لمعابدهم كما أنهم كانوا يكتبون أسماءهم على بعض الصخور والجبال التي كانوا يمرون عليها في غزواتهم وهي التي أنارت مصباح تاريخهم.

وقد يوجد على بعض صخور هذا الجبل قصائد في مدح النيل المبارك أما المغارات الموجودة هناك فأهمها ما يعرف بإسم إسطبل عنتر وتعرف عند علماء الآثار بإسم إسبيو **(Spéos)** منحوتة على هيئة إسطبل خيل طويل يمتد بابه من أوله إلى آخره تقريبًا وبه أربعة عمد ضخمة تحمل الجبل من فوقها كل من رآها من بعد ظنها خمسة حوانيت بالجبل وتعزى بداءة عمل هذا المكان إلى فرعون هورروس أو (هور محب) آخر فراعنة العائلة الثامنة عشرة وقد تقدم ذكره غير مرة في هذا الكتاب ولبعض اللواء والأمراء زيادة فيه بدليل وجود أسمائهم على جدره وكله مزين بالنقوش الملونة وبصور المعبودات وإذا أردنا وصفه طال بنا المقال وأهم ما به لوحتان مرسومتان في زاويته الجنوبية الغربية إذ يشاهد في الجهة الجنوبية صورة معبودة تحمل في حجرها الملك هورروس المذكور وهو طفل وترضعه ثديها ونقش هذا المكان من أجل النقوشات الفاخرة التي تبتهج النفوس عند رؤيتها وتنشرح الخواطر لمشاهدتها لأنها جمعت بين اللطافة والدقة والحسن أما اللوحة الثانية المرسومة على منعطف جدار الجانب الغربي فتعرف عند علماء الآثار بإسم نصرة هورروس إذ تراه جالسًا على تختة فوق محمله يحمله إثنا عشر ضابطًا من رجال جيشه ثم ضابطان آخران يحملان فوق رأسه مظلتين لهما أيادي طويلة وأمام الموكب عساكر مصرية عابسة الوجوه يلوح عليهم الغضب والحماس تمشي حاملة سلاحها تسوق أسارى أتت بهم من بلاد السودان فيعلم من ذلك أن هذا الموكب إنعقد للملك المذكور لما عاد إلى مصر سالمًا من غزوة غزاها لأمة الكوش ببلاد السودان ولكل أيام دولة ورجال أنظر موكب هذا الملك في الباب الرابع عشر من

هذا الكتاب فإنه يقرب جدًا مما ذكرناه ورأيت في سنة ٩٢ على الجبل الشرقي صخرة منفصلة عنه منحوتة على هيئة برج المعبد مكتوبة بالقلم القديم ولها شكل ظريف للغاية وهي شكل هرم ناقص مربع القاعدة والأضلاع ينتهي كل سطح منه بإفريز لطيف وفوقه رفرف يعلوه رفرف آخر وكلها في غاية الحسن عليها إسم الملك أمنحتب الثالث (من العائلة الثامنة عشرة) فأخذت قياسه وكعبته فعلت أن ثقله لا يتجاوز المائة قنطار فأرسلت إلى المصلحة بنقله إلى المتحف المصري لكنها لم تفعل ويغلب على ظني أنه لم يصل أحد من الأفرنج إلى هذا المكان ولا يعرف ذلك الأثر لأن مسلكه وعر بعيد عن الأماكن التي إعتاد السائحون زيارتها سيما وأنه مختلف خلف منعطف لوهدة من الجبل وعلى بعد نحو المائتي متر منه إلى الجنوب مقصورة أو خزانة صغيرة منفصلة عن الحبل كأنها مقصورة الديده بان (خفير العسكر) التي تكون في كل نقطة عسكرية ليأوي إليها الديده بان وقت المطر وغيره وعلى نحو مائتي متر حائط منفصل عن الجبل أيضًا قائم كالجدار عليه كتابة مصرية وإسم الملك صاحبه ولم أتذكر الآن إسمه.

ورأيت على الشاطئ الغربي للنيل على بعد ثلاث ساعات من جبل السلسلة جهة الشمال وادٍ بين جبلين يعرف عنها سكان تلك الجهة بإسم وادي الحمام يتجه إلى الغرب فسلكت فيه وشاهدت على حائط منحوت في الجبل صورة أحد الملوك وخلفه زوجته وأمامه أولاده فتركته وداومت على السير في الوادي فلاحت لي فجوة على اليسار فدخلتها فرأيت لوحة مربعة منحوتة في الجبل بهندام لطيف عليها إسم الملك طوطوميس الثالث وأخته الملكة حتزو وكتابة بربائية فتركتها وإتبعت الوادي حتى أتيت على آخره فرأيته ينتهي بطريق قديم يبلغ إتساعه نحو الثلاثة أمتار ليس به حجر ولا مدر محفوف بالحجارة والصوان فخامر عقلي أنه طريق للعربات الحربية صنعته الفراعنة في هذه الجهة ثم رأيت على اليمين واليسار حجارة عليها إسم هذا الملك فأيقنت أنه هو الذي صنعه وسير فيه جيوشه ليستولي على بلاد ليبيا وأخبرني الدليل أنه يصل إلى ألواح ويمر بمقابر قديمة ومباني فرعونية وأن أناسًا أرادوا الحفر فيها فهبت عليهم ريح عاصف فخافوا وعادوا وظنوا أنها أرض مسكونة ولما كذبته فيما إدعاه قال لي إنه كان من جملتهم وعاد خائبًا ثم سألته عن طول الطريق فقال نحو ثلاثة أيام للراكب المجد ولما سمعت منه ذلك عدت بعد أن مشيت فيه وفي الوادي نحو الساعتين وربع فكان جملة ما مشيته على قدمي في ذلك اليوم نحو أربع ساعات ونصف.